القسم الأول

التعريف بالمؤلف والكتاب

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب الأول

التعريف بالمؤلف

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

عصر المؤلف

إن العصر الذي يعيشه الإنسان له دور بارز في حياته وتكوين شخصيته لذلك كان على الباحث الذي يدرس شخصية من الشخصيات أو أثراً من آثارها أن يكتب - ولو على وجه الإيجاز - عن النواحي السياسية والعلمية والاجتماعية السائدة في ذلك العصر، ليقف على مدى تأثير وتأثر تلك الشخصية بأحداث عصرها.

وقد عاش المؤلف القاضي الإمام صالح بن الحسين الجعفري في الفترة ما بين نهاية القرن السادس ومنتصف القرن السابع الهجريين.

-الحالة السياسية:

كان القرن السادس ومنتصف القرن السابع الهجري من فترات العصر العباسي الثاني الذي ضعفت فيه الخلافة العباسية وتفككت إلى دويلات صغيرة، وظهرت ممالك مستقلة عنها، ولم يكن للخليفة العباسي إلا السلطة الاسمية على بغداد وما جاورها، أما السلطة الفعلية فكانت للسلاجقة في بلاد فارس والمشرق وما وراء النهر، وللغزنويين في بلاد الهند وخراسان، وللفاطميين في مصر حتى سنة ٥٦٧ هـ ثم انتقلت إلى الأيوبيين الذين بسطوا سلطانهم إلى بلاد الشام، والموحدين في الأندلس والمغرب، والصليحيين في اليمن[1].

(١) ر: الدولة العباسية ص ٤٣٠، محمود الخضري، تاريخ الإسلام ٣٦١/ ٤ ـ ٢٣٢، د. حسن إبراهيم.

وكانت الصورة العامة في ذلك العصر اضطراب الأمن وعدم الاستقرار وانتشار الفتن والثورات والقلاقل وكثرة الحروب الداخلية بين الأمراء والملوك المتنازعين على السلطة والطامعين فيها، مما أدى إلى ضعف قوة المسلمين في مواجهة الحروب الخارجية ومن أبرزها الحروب الصليبية التي كانت تشنها دول أوربا على العالم الإسلامي، والغزو المغولي التتري الذي أدى إلى القضاء على الخلافة العباسية وتدمير عاصمتها بغداد سنة ٦٥٦ هـ.

ولم يكن الحال مختلفا عن ذلك في مصر، حيث عاش المؤلف بداية حياته في كنف الدولة الأيوبية الفتية التي أسسها الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٩ هـ، وورثها من بعده أبناؤه إلى أن انتهت الدولة الأيوبية وأفل نجمها سنة ٦٤٨ هـ، وكان عمر المؤلف حينئذ (٥٧) عاما، ثم عاش بعد ذلك بقية عمره في ظل دولة المماليك البحرية[1].

أما السلاطين والملوك الذين عاصرهم المؤلف فهم:

١- السلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي ت سنة ٥٨٩ هـ.

٢- السلطان الملك العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين ت سنة ٥٩٥ هـ.

٣- السلطان الملك المنصور محمد بن السلطان الملك العزيز عثمان، وقد خلعه الملك العادل سنة ٥٩٦ هـ.

٤- السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب، أخو السلطان صلاح الدين ت سنة ٦١٥ هـ.

٥- السلطان الملك الكامل محمد بن العادل الصغير أبو بكر ت ٦٣٥ هـ.

---

(١) هم الملوك الأتراك.

٦- السلطان الملك العادل الصغير أبو بكر بن الكامل محمد، وقد خلعه الأمراء سنة ٦٣٧ هـ.

٧-السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد ت ٦٤٧ هـ.

٨- السلطان الملك المعظم توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب، وقد قتله المماليك سنة ٦٤٨ هـ. وبموته انتهت الدولة الأيوبية من ديار مصر وانتقلت إلى دولة المماليك الأتراك.

٩- وتولت السلطنة من بعده الملكة شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب وتزوجت الأمير عز الدين أيبك التركماني ونزلت له عن السلطنة وكانت مدة سلطنتها ثمانين يوماً.

١٠- السلطان الملك المعز أيبك التركماني ت سنة ٦٥٥ هـ.

١١- السلطان الملك المنصور نور الدين علي بن الملك المعز أيبك، تولى السلطنة وعمره خمس عشرة سنة وقيل: عشر، وقد خلعه الأمير سيف الدين قطز سنة ٦٥٧ هـ.

١٢- السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز المعزي، وقد قتله الأمير بيبرس سنة ٦٥٨ هـ، واستولى على الحكم.

١٣- السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري العلائي ت سنة ٦٧٦ هـ بدمشق[1] وفي عهده توفي المؤلف رحمه الله سنة ٦٦٨ هـ.

ويلاحظ من خلال هذا العرض السريع كثرة من تولوا حكم مصر في هذه الفترة، ويرجع ذلك إلى أن منهم من قتل أو خلع من الحكم؛ إما لسوء تدبيره في الحكم، أو سوء سيرته، أو لطمع الطامعين في السلطة.

(١)ر: الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، ص ٢٢٠- ٢٨٣ لابن دقماق، خطط المقريزي ٣/ ٨٤ - ٩٣.

وأما عن أبرز الأحداث التي حصلت في الفترة التي عاشها المؤلف فهي كالآتي :

أولاً:

- الجهاد الإسلامي الذي قاده ملوك الأيوبيين ثم المماليك ضد غزوات الفرنجة (الأوربيين) النصارى على العالم الإسلامي ضمن سلسلة ما يسمى بالحروب الصليبية التي بدأت منذ نهاية القرن الخامس الهجري وانتهت عسكريا[1] في نهاية القرن السابع الهجري، وقد كان الدافع لهذه الحروب الصليبية هو الحقد النصراني على العالم الإسلامي ثم الطمع والجشع في غزو ونهب ثروات البلاد الإسلامية واتخاذ دعوى نصرة النصرانية واسترجاع بيت المقدس ستارا لذلك، ولقد خاض المسلمون في هذه الفترة معارك ضارية ضد ثلاث حملات صليبية هي الحملة الخامسة والسادسة والسابعة.

- أما الحملة الصليبية الخامسة فقد كانت في سنة ٦١٥ هـ، وقام الصليبيون[2] بمهاجمة ومحاصرة مدينة دمياط بمصر، وكان سلطان الدولة الأيوبية إذ ذاك الملك العادل أبو بكر الذي مات أثناء حصار دمياط، فاضطربت أمور الدولة واستطاع الصليبيون احتلال دمياط سنة ٦١٦ هـ، ثم الانطلاق منها لغزو القاهرة، وكان الملك الكامل ابن الملك العادل قد تولى السلطنة بعد وفاة أبيه، ونادى بالنفير العام، واستنجد بأخويه الملك عيسى صاحب دمشق، والملك الأشرف صاحب حلب فحضرا بجيوشهما لخدمته، فلما اجتمعوا ساروا إلى دمياط والتقوا مع الصليبين في المنصورة سنة ٦١٨ هـ في معركة فاصلة كان النصر فيها للمسلمين والهزيمة للكافرين واستسلامهم

(١) أما فكريا، فلا تزال الحروب الصليبية مستمرة إلى يومنا هذا متمثلة في الغزو الفكري الغربي وحملات التنصير والاستشراق بأسلحتها المتنوعة الإعلامية والفكرية والاقتصادية.

(٢) بقيادة ملك بيت المقدس (مملكة عكا النصرانية) حنابرين، وملك النمسا ليوبولد السادس، وملك المجر أندريه الثاني الذي رجع إلى بلاده قبل حصار دمياط.

وخروجهم من مصر صاغرين، وهكذا انتهت هذه الحملة بهزيمة منكرة وفشل ذريع[1].

- وأما الحملة الصليبية السادسة فقد كانت أيضاً في عهد الكامل ابن الملك العادل، وكان قائدها الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني الذي وصل بأسطوله الحربي إلى عكا سنة ٦٢٦ هـ، وفاوض فريدريك الملك الكامل - الذي كان آنذاك بالشام لخلاف بينه وبين أخيه الملك عيسى صاحب دمشق - على أن يرد المسلمون إلى النصارى ما كان صلاح الدين قد استرجعه منهم، فوقعت المصالحة بين الإمبراطور فريدريك والملك الكامل على أن يردوا لهم بيت المقدس وحده دون الأماكن المقدسة الإسلامية وأن تبقى بقية البلاد بأيدي المسلمين[2].

وعندما استولى الملك الصالح أيوب من الملك الكامل على السلطنة في مصر سنة ٦٣٧ هـ. كانت له عداوة مع بقية أمراء بني أيوب بالشام خاصة عمه الملك الصالح إسماعيل الذي تحالف مع الصليبيين وتنازل لهم عن بعض البقاع منها طبرية وصيدا لمساعدته في حربه ضد الملك الصالح أيوب فلم يكن أمام الملك الصالح أيوب (صاحب مصر) إلا الاستعانة بالقبائل الخوارزمية من وراء الفرات سنة ٦٤٢ هـ. لمحاربة عسكر الشام المتحالف مع الفرنجة، وجرت معارك شديدة بين الفريقين انتصر فيها الملك الصالح أيوب على أعدائه جميعاً سنة ٦٤٢ هـ، وأعاد بيت المقدس إلى السيادة الإسلامية[3].

---

(١) ر: بدائع الزهور في وقائع الدهور ١/ ٢٥٨ - ٢٦٣، لأبي البركات محمد بن أحمد بن إياس، الجوهر الثمين ص ٢٣٥، وفيات الأعيان ٤/ ١٧٢، لابن خلكان.

(٢) ر: الجوهر الثمين ص ٢٣٥، البداية والنهاية ١٣/ ١٢٣، ١٢٤، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ص ١١٣ - ١١٦ لمحمد العروسي.

(٣) ر: النجوم الزاهرة ٦/ ٣٢١ - ٣٢٤ لابن تغري بردي، البداية والنهاية ١٣/ ١٦٤ - ١٦٥.

كان استرجاع بيت المقدس من النصارى سببا في قيام الحملة الصليبية السابعة التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع[1] سنة ٦٤٧ هـ، ضد البلاد المصرية - التي كانت لها السيادة على الأماكن المقدسة - وقامت أساطيله الحربية باحتلال مدينة دمياط، ولما وصلت الأخبار بذلك إلى الملك الصالح أيوب أمر بإشهار النداء في مصر والقاهرة بالنفير عاماً، وخرج الملك الصالح بجيشه لصد زحف الصليبيين المتجهين نحو القاهرة وأثناء الحرب ونشوب المعارك توفي الملك الصالح إلا أن زوجته شجرة الدر أنقذت الموقف وأخفت موته إلا عن بعض خاصة القواد وقامت معهم بتدبير الأمور إلى حين وصول ولي العهد الملك توران شاه بن أيوب وتوليه السلطة سنة ٦٤٨ هـ، وقيادة الجيوش ضد الصليبيين في معركة فاصلة قاسية كانت الغلبة فيها للمسلمين والهزيمة المنكرة للصليبين، وأسر فيها قائدهم الملك لويس التاسع الذي افتدى نفسه بمبلغ كبير وعاد إلى بلاده مدحوراً[2]، وبذلك انتهت هذه الحملة التي تعتبر آخر الحملات الصليبية على الشرق الإسلامي.

أما عن جهاد ملوك دولة المماليك فإن الملك الظاهر بيبرس لما تولى السلطنة في مصر أخذ يهاجم الصليبين ويحرر منهم الحصون والمدن كقيسارية[3]، وأرسوف صفد [4] ويافا والشقيف[5]، وأنطاكية وغيرها عنوة أو مصالحة، وما إن توفى الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦ هـ حتى انحصرت الإمارات الصليبية في منطقة

---

(١) في الجوهر الثمين: افرنسيس، وفي النجوم الزاهرة: ريدا فرنس.

(٢) ر: الجوهر الثمين ص ٢٤٤ - ٢٤٨، النجوم الزاهرة ٦/ ٣٦٢ - ٣٦٨، البداية والنهاية ١٣/ ١٧٨، الحروب الصليبية ص ١١٧ - ١٢٢ للعروسي.

(٣) ر: الجوهر الثمين ص ٢٧٧ - ٢٩٢ لابن دقماق، الحروب الصليبية ص ١٣١، للعروسي.

(٤) مدينة بفلسطين بين يافا وحيفا. (ر: المنجد في الأعلام ص ٥٦٠)

(٥) قلعة بمدينة صفد بفلسطين (المرجع السابق ص ٤٢٧)

ساحلية صغيرة لا تعدو عكا وطرابلس[1].

ثانياً:

ومن أبرز الأحداث المؤلمة في هذه الفترة الزمنية الغزو المغولي على العالم الإسلامي الذي قضى على الخلافة العباسية ودمر عاصمتها بغداد سنة ٦٥٦هـ، واستولى المغول التتار على بلاد الشام وغيرها من بلاد المسلمين وعاثوا في الأرض قتلاً وحرقًا ودماراً وفساداً مما لا مثيل له في التاريخ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثالثاً:

حينما عزم التتار على غزو مصر بعد استيلائهم على الشام، اتفق الأمراء المماليك على تولية الملك المظفر قطز سنة ٦٥٧ هـ، الذي أعد العدة لملاقاة التتار وأعلن النفير العام في القاهرة وسائر الأقاليم بالخروج إلى الجهاد ومقاتلة التتار الذين انهزموا شر هزيمة في معركة عين جالوت[2]بيان[3] سنة ٦٥٨ هـ[4]، وكانت نهاية الخرافة السائدة بأن المغول لا ينهزمون، وبداية تحرير البلاد الإسلامية منهم. ولله الحمد.

رابعاً:

إعادة الخلافة العباسية في مصر على يد الملك ظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ هـ، بعد هدمها وانقطاعها في بغداد، وتولية المستنثر بالله أحمد بن الإمام الظاهر

---

(١) قلعة بالقرب من قضاء النبطية بجنوب لبنان (المرجع السابق ص ٣٧).

(٢) بليدة شرق دارين بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين (ر: معجم البلدان / ٧٦، ياقوت الحموي).

(٣) مدينة بالأردن بالغور الشمالي (ر: معجم البلدان ٣/ ٦٠).

((٤) ر: الجوهر الثمين ص ٢٦٤ - ٢٦٩، السلوك ١/ ٤٣١، الخطط ٢/ ٢٣٨ للمقريزي النجوم الزاهرة ٧/ ٧٩ - ٨٢.

بالله محمد الخلافة العباسية ومبايعته بالقاهرة[1].

تلك كانت أهم الأحداث وأبرزها في عصر المؤلف باختصار، ويهمنا الآن معرفة دور المؤلف فيها، وما مدى تأثيرها فيه؟

لم تذكر المصادر[2] التي ترجمت للمؤلف - رحمه الله - دوراً بارزاً له في تلك الأحداث، إلا أنها ذكرت أن المؤلف صالح بن الحسين الجعفري كان قاضيا في مدينة قوص[3] مدة، ووالياً عليها مدة أخرى، وقد استنتجت من ذلك أن المؤلف كان له دور عملي أثناء الحروب الصليبية وغيرها - بحكم ما تولاه من الوظائف المهمة في الدولة ومكانته الاجتماعية والعلمية والقيادية - في حث الناس على الجهاد والخروج لصد الغزاة وحماية الأعراض والبلاد، وترغيب الناس في الصدقة، وجمع الأموال لإعداد الجيوش، خاصة حينما أعلن الملك الكامل والملك الصالح والملك المظفر قطز النفير العام في مصر.

وبجانب جهاد المؤلف بالسيف والسنان كان له أيضا جهاد القلم واللسان والحجة والبرهان ضد الصليبيين وأعوانهم من اليهود، وبيان فساد دينهم وما هم عليه من الباطل والخذلان.

ويظهر لنا هذا الجانب بحسب ما وقفت عليه من كتبه في الرد على اليهود والنصارى ومنها (تخجيل من حرف التوراة والإنجيل) و(الرد على النصارى) و (البيان الواضح المشهود من فضائح النصارى واليهود).

---

(١) ر: الجوهر الثمين ص ١٧٩-١٨٥، البداية والنهاية ١٣/ ٢٣١، ٢٣٢.

(٢) سيأتي ذكر هذه المصادر (ر: ص ٣٤).

(٣) قوص: مدينة في مصر على ضفة النيل الشرقية (محافظة قنا)، تبعد عن القاهرة (٨٠٠ كم) تقريبا في جنوب الصعيد، أصبحت في القرن السابع الهجري (القرن ١٤ م) أولى مدن الصعيد وثانية المدن المصرية، فكانت مدينة كبيرة عظيمة وأهلها أرباب ثروة واسعة وهي محط التجار القادمين من عدن، وهي شديدة الحر لقربها من البلاد الجنوبية. (ر: معجم البلدان ٤/ ٤١٣، لياقوت الحموي، المنجد في الأعلام ص ٥٥٨، الموسوعة الميسرة ١/ ١٤٠٧).

وقد أكد لنا المؤلف أداءه لهذا الواجب في ذكره سبب تأليف كتابه (البيان الواضح) أنه كان من باب الذَّبّ عن الدين والجهاد القامع للملحدين(١).

الحالة الاجتماعية:

كان المجتمع المصري يتألف من عدة طبقات: طبقة أهالي البلاد الأصليين السنيين الذين يؤلفون الأغلبية الساحقة من المصريين، ثم طبقة المغاربة الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم ويدينون بالمذهب الشيعي مذهب الفاطميين، ثم طبقة الأتراك الذين كثر عددهم في مصر منذ أيام الدولة الطولونية سنة ٢٥٤ - ٢٩٢ هـ، وظهر أمرهم في عهد الخليفة الحاكم الفاطمي، ثم طبقة السودانيين الذين كثر عددهم في مصر منذ أيام كافور الإخشيد سنة ٣٥٥ - ٣٥٧ هـ. وظهر أمرهم منذ أيام الحاكم الفاطمي الذي استعان بهم ضد الأتراك(٢)، ثم ظهرت طبقة أخرى في عهد المماليك وهم التتار الذين قدموا إلى مصر في أوائل عهد السلطان بيبرس وازداد عددهم في عهد السلطان كتبغا سنة ٦٩٥ هـ(٣).

كما كان يعيش في المجتمع المصري المسلم طائفة أهل الذمة (وهم اليهود والنصارى) التي تدفع الجزية للدولة الإسلامية مقابل حمايتها وتمتعها بحريتها الدينية في ظل التسامح الإسلامي. وقد تعددت فرق أهل الكتاب وطوائفهم في مصر على النحو الآتي:

---

(١) ر: مقدمة كتاب (البيان الواضح المشهود) ورقة ٥ / أ.

(٢) ر: مصر في العصور الوسطى ص ٤٦١ هـ، علي إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ٤/ ٦٢٧، ٦٢٨، د. حسن إبراهيم.

(٣) ر: مصر في العصور الوسطى ص ٤٧٨، د. علي ابراهيم.

أما اليهود فكانوا أقلية بالنسبة للنصارى، وينقسمون إلى ثلاث فرق رئيسة هي:

١- فرقة الربانيين: وهم جمهور اليهود، ومنهم يكون رئيس اليهود المشرف على الطوائف اليهودية الأخرى.

٢- ثم يليهم في العدد فرقة القرائين.

٣- ثم فرقة السامريين (أو السامرة) وكانوا أقلية صغيرة العدد في مصر[١].

وقد كان لكل فرقة من فرق اليهود كنائسها الخاصة بها، وقد أحصى المقريزي إحدى عشرة كنيسة في القاهرة والفسطاط وأقاليم البلاد المصرية، وكلها محدث في الإسلام على حد قوله[٢].

أما النصارى فقد انقسموا إلى ثلاث فرق رئيسة هي:

١- اليعاقبة (مذهب اليعقوبية) وهم الأقباط الذين يمثلون أغلبية النصارى في مصر.

٢- الملكية أو الملكانية: وهم أقلية بالنسبة لليعاقبة كما أنهم في غالبيتهم من أصول غير مصرية كالروم وغيرهم، ومن ثم اشتدت العداوة بينهم وبين الأقباط.

وكان لكل فرقة بطريرك خاص بها يتولى تنظيم الشئون الداخلية لجماعته وفقا لقوانينهم والإشراف على الكنائس والأديرة وما يتعلق بها، وتحديد مواعيد أعيادهم ومواسمهم وتنظيم علاقة أبناء طائفته بالدولة[٣].

---

(١) ر: صبح الأعشى ١١/ ٣٨٥، ٣٨٨، ٣/ ٢٥٣، ٢٥٧، ٢٦٨، للقلقشندي.

(٢) الخطط ٢/ ٤٦٣، ٤٧٤.

(٣) ر: صبح الأعشى ١١/ ٣٩٢، ٣٩٥، ٣٩٧، أهل الذمة ص ٣٤، ١٠٣-١٨٠، د. قاسم عبده.

٣- النسطورية : وهم أقلية صغيرة العدد في مصر(١).

وقد انتشرت كنائس النصارى في كل أنحاء مصر، وكانت غالبيتها ملكا لليعاقبة بحكم كونهم الأغلبية، فقد أحصى المقريزي ما يزيد على اثنتين وثمانين كنيسة لليعاقبة في الوجة القبلي، كما امتلك النصارى الملكية بعض الكنائس في القاهرة والفسطاط، ووجدت بعض كنائس للأرمن والنساطرة(٢).

أما فيما يتعلق بالناحية الاقتصادية في مصر زمن الأيوبيين وعصر المماليك البحرية فقد كانت منتعشة، وكان المال يأتيها من موارد عدة، منها الجزية التي كانت تصلها من الإمارت، والضرائب المعتادة التي تجبى من الشعب، إضافة إلى غنائم الحروب وغيرها، ولم تحدث في عهد الأيوبيين إلا مجاعة واحدة في عهد السلطان العادل سنة ٥٩٦ هـ استمرت نحو ثلاث سنوات، كان سببها انخفاض مياه النيل، فانتشر القحط، وهرب الناس من مصر إلى الشام وغيرها ومات الناس من التعب والجوع واشتد الغلاء(٣).

تلك صورة موجزة عن المجتمع المصري زمن المؤلف، نتعرف من خلالها بعض المؤثرات في شخصية المؤلف وتكوينه، إذ لا يخفى أن للبيئة الاجتماعية التي تحيط بالإنسان تأثيراً فيه بصورة مباشرة أو غير مباشرة، سلباً أو إيجاباً.

وقد كان المؤلف - بحكم وظيفته قاضيا لمدينة قوص ووالياً عليها - على اتصال وثيق بمختلف طبقات الشعب مسلمهم وذميهم، كبيرهم وصغيرهم، واطلاع على أمورهم ومشكلاتهم، وتحكيم شرع الله فيهم وإقامة العدل

(١) خطط المقريزي ٢/ ٥١٠، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ص ١٠٧ لابن دقماق.

(٢) خطط المقريزي ٢/ ٥١٦ - ٥١٨، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ص ١٠٧-١٠٩، أهل الذمة ص ١٢٩، ١٣٠، د. قاسم.

(٣) السلوك ١/ ١٥٦ للمقريزي، البداية والنهاية ١٣/ ٢٢، ٢٩، مصر في العصور الوسطى ص ٣٨٠- ٣٨٣.

والقسط بينهم، وقد كان للاحتكاك المباشر بين المؤلف القاضي واليهود والنصارى أثر في تأليف كتبه في الرد على اليهود والنصارى، خاصة إذا ما علمنا أن مدينة قوص من المدن الرئيسة التي كان يعيش فيها عدد كبير من الذميين، فقدذكر بنيامين التطيلي - الذي قام برحلة إلى مصر في عصر الأيوبيين - أنه وجد بقوص حوالي ثلاثمائة يهودي(١)، كما ذكر المؤرخ المقريزي أنه كان بقوص وأسوان إحدى عشرة كنيسة للنصارى(٢)، فقد كان من الطبيعي أن يقوم المؤلف الفقيه بواجبه في الدعوة إلى الإسلام بأن يبين لليهود والنصارى بطلان ما يعتقدونه من العقائد الفاسدة وما يتمسكون به من الشريعة المنسوخة والكتب المحرفة ويقدم لهم النصيحة الواجبة المؤيدة بالأدلة النقلية والبراهين العقلية لاعتناق الاسلام والانضمام إلى أهل الإيمان، وقد أوضح المؤلف أن من أسباب تأليفه لكتاب (التخجيل) هو القيام بما أُمِر به المسلمون في قوله تعالى : ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾. كما بيَّن المؤلف خلال كتابه بعضا من نشاطه في مجال الدعوة عن طريق المناظرة والمحاورة لأحبار اليهود والنصارى بإبطال شبههم وإقامة الحجة عليهم وإلزامهم بالاعتراف بنبوة سيدنا محمد ﷺ.

---

(١) ر: كتاب (رحلة بنيامين التطيلي) ص ١٧٣ ترجمة وتعليق عزرا حداد - طبعة بغداد سنة ١٩٤٥م، نقلا من كتاب أهل الذمة في مصر ص ٢١، ٦٠ ، د. قاسم عبده.

(٢) ر: الخطط ٣/ ٥٧٩ .

الحالة العملية

إن الحوادث المؤلمة والغـزوات المتكـررة على العـالم الإسـلامي من التتـار والصليبين تـركت آثـارا سيئـة وخطيرة على الحركـة العلميـة، فقـد قتل الأئمـة والعلماء وهدمت المسـاجد والمدارس وأحرقـت المكتبات وأتلفت الكتب، ولكن على الرغم من ذلك فإن الحركة الفكـرية والثقافية في ذلك العصر كـانت مزدهرة ازدهارا كبيرا، فقد ظهر الأئمة والعلماء والأعلام في مختلف العلوم منهم :

محمد بن عمر بن حسين الرازي المفسر ت سنـة ٦٠٦ هـ، وعبد الله بن أحمد ابن محمـد بن قـدامـة المقـدسي ت سنـة ٦٢٠ هـ، وعلي بن محمـد الشيبـاني الجزري، المعروف بـابن الأثير المؤرخ ت ٦٣٠هـ، وعلم الـدين علي بن محمد ابن عبد الصمد السخاوي ت ٦٤٣ هـ، وابـن التلمساني شرف الدين عبد الله ابن محمد الفهري ت سنة ٦٤٤هـ، وابن الحاجب عثمان بن عمر ت سنة ٦٤٦ هـ، ونجم الـدين مختار بن محمـود الزاهـدي الغزميني ت ٦٥٨ هـ، والعز بن عبدالسـلام المعروف بسلطـان العلماء ت سنة ٦٦٠ هـ، ومحمـد بن أحمد بن أبي بكـر الأنصاري القـرطبي المفسر ت سنة ٦٧١ هـ، وأبـو زكريـا يحيى بن شرف النـووي ت سنـة ٦٧٦ هـ، وشهـاب الـدين أحمد بن إدريس القـرافي ت سنة ٦٨٤ هـ، وغيرهم ممن يصعب حصرهم والإحاطة بهم.

كما نشطت مراكـز علمية في الأندلس وغيرها، وانتشرت المؤلفـات النافعة في العلوم المختلفة وتنافس الناس على اقتنائها ودراستها وقد ساعد على هذه الحركة العلمية وازدهارها عدة عوامل من أبرزها :

١- اعتناء الملوك والولاة بالعلم وتشجيعهم وإكرامهم للعلماء.

٢- تـولي العلماء للمناصـب المهمة والعـاليـة في الـدولة واحترام النـاس لهم وتقديرهم.

٣- كثرة المدارس والمراكز العلمية التي تنشأ في البلاد الإسلامية .

٤- توافر خزائن الكتب في المساجد والمدارس وانتشار المكتبات العلمية العامة والخاصة .

وقد توافرت تلك العوامل في مصر، حيث عاش المؤلف رحمه الله ؛ فقد عرف عن ملوك الأيوبيين والمماليك حبهم وتقديرهم للعلم والعلماء، فكان السلطان صلاح الدين الأيوبي ت سنة ٥٨٩ هـ، يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم، حتى صار لكثرة مخالطته بهم وأخذه عنهم من كبار الفقهاء(١)، وكذلك كان ابنه من بعده الملك العزيز عثمان الذي سمع الحديث من الحافظ السلفي والفقيه أبي طاهر بن عوف الزهري وغيرهم(٢)، وكذلك كان من بعده الملك العادل أبو بكر(٣).

ثم كان الملك الكامل الذي يحضر مجلسه الفقهاء كل ليلة ويتحدث معهم ويشاركهم في علومهم ويبيت معهم كواحد منهم(٤)، ويتنافس العلماء في إهداء كتبهم ومؤلفاتهم إليه، فقد أهدى إليه المؤلف صالح بن الحسين الجعفري كتابه (العشر المسائل) وتسمى أيضا (بيان الواضح المشهود من فضائح النصارى واليهود) الذي ألفه في عهد الكامل سنة ٦١٨ هـ، وأهداه إليه ليقمع به أشطان طاغية الروم الأبتر الشيطان الذي أرسل إلى السلطان الكامل عدة

(١) ر : الجوهر الثمين ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، النجوم الزاهرة ٦ ٨/ ، ٩، ٥٦ .

(٢) ر: وفيات الأعيان ٣/ ٢٥١ لابن خلكان، الجوهر الثمين ص ٢٣٠، النجوم الزاهرة ٦/ ١٢٧ - ١٢٩ .

(٣) ر: النجوم الزاهرة ٦/ ١٦٣ .

(٤) ر: وفيات الأعيان ٥/ ٨١، الجوهر الثمين ص ٢٣٨، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٢٧، ٢٢٨، خطط المقريزي ٣/ ٣٣٩ .

مسائل يطلب من المسلمين الجواب عنها، وكان ذلك سبب تأليف المؤلف لذلك الكتاب[١].

كما أهدى الإمام أحمد بن إدريس القرافي كتابه (أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية) إلى السلطان الكامل[٢].

وكذلك كان الملك الصالح نجم الدين يكرم العلماء ويحبهم ويسمع منهم ويبالغ في إكرامهم ويجري على أهل العلم الجرايات[٣].

أما عن ملوك المماليك فإن السلطان الظاهر بيبرس كان محبا للعلماء ومقربا لهم، وبنى المدارس والجوامع الكثيرة[٤].

أما عن المدارس والمراكز العلمية فقد كانت كثيرة جداً، نذكر منها[٥]:

١- المدرسة الناصرية وقد بناها السلطان صلاح الدين في عام ٥٦٦ هـ.

٢- المدرسة الصلاحية وبناها السلطان صلاح الدين في عام ٥٧٢ هـ.

٣- المدرسة الفاضلية أسسها القاضي الفاضل عبد الرحيم ت سنة ٥٩٦ هـ، وكان من أكابر العلماء في عصر الأيوبيين.

٤- المدرسة الشريفية وقفها الأمير الشريف فخر الدين أبو نصر إسماعيل بن ثعلب الجعفري الزيني أحد أمراء مصر في الدولة الأيوبية ت سنة ٦١٢ هـ.

٥- المدرسة الكاملية وهي دار الحديث بناها الملك الكامل في عام ٦٢١ هـ.

---

(١) مقدمة كتاب (البيان الواضح المشهود) - مخطوط، الورقات ٤، ٥.

(٢) ر: مقدمة كتاب (أدلة الوحدانية) ص ١٩ - ٢١، تحقيق عبد الرحمن دمشقية.

(٣) ر: السلوك ٢/ ٣٠٨، ٣٤٠، النجوم الزاهرة ٦/ ٣٣١.

(٤) ر: النجوم الزاهرة ٧/ ١٨١، عصر سلاطين المماليك ١/ ٢٧.

(٥) ر: للتوسع في ذلك خطط المقريزي ٣/ ٣١٣ - ٣٨٣، حسن المحاضرة ٢/ ٢٥٧ - ٢٧٠.

٦- المدرسة الصالحية وهي أربع مدارس للمذاهب الأربعة بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب في عام ٦٣٩ هـ.

٧- المدرسة الظاهرية وبناها الملك الظاهر بيبرس في عام ٦٦٢ هـ.

وكانت هذه المدارس وغيرها تعنى بتدريس العلوم الدينية والأدبية والعقلية، كما كانت تلك المدارس والمساجد والقصور تلحق بها خزائن الكتب (المكتبات) التي تحتوي على أمهات الكتب وأنفسها وأوسعها في سائر العلوم.

بذلك نرى أن البيئة العلمية المحيطة بالمؤلف ساعدته كثيرا في تكوينه العلمي وعلى تحصيل العلم والاجتهاد فيه حتى أصبح من العلماء البارزين الذين كانت لهم التصانيف العديدة المفيدة ونال ثقة الولاة والحكام في تعيينه قاضيا في مدينة قوص ووالياً عليها، خاصة إذا ما علمنا أن مدينة قوص قد نشطت أثناء الحروب الصليبية حينما استولى الصليبيون على فلسطين وعلى ثغورها فازداد خطرهم وأصبح الطريق المألوف لحجاج بيت الله الحرام غير مأمون، فأصبحت مدينة قوص من المدن الرئيسة المهمة التي يمر بها حجاج بيت الله القادمين من الأندلس وشمال أفريقيا، فكثرت بها المدارس والمعاهد والمساجد وقصدها العلماء ونزلوا فيها، وبزغ منها علماء في مختلف العلوم، وكثر فيها الأدباء والشعراء؛ لأنها أصبحت محط رحال الحجيج[1].

ومن هؤلاء العلماء الذين درسوا العلم ودَرَّسوه في قوص: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمود الأصفهاني توفي سنة ٦٨٨ هـ[2]، وجلال الدين أحمد ابن عبد الرحمن الكندي الدشنادي توفي بقوص سنة ٦٧٧ هـ[3]، والقاضي

---

(١) ر: الغزو الصليبي والعالم الإسلامي ص ٢٢٩، ٢٣٠، د. علي عبد الحليم محمود، الموسوعة الميسرة ١/ ١٤٠٧.

(٢) ر: طبقات الشافعية ٨/ ١٠١ للسبكي، حسن المحاضرة ٢/ ١٦٤.

(٣) ر: طبقات الشافعية ٨/ ٢٠ للسبكي.

بهاء الدين القفطي هبة الله بن عبد الله بن سيد الكل، كان قيما بالمدرسة النجيبية قوص توفي سنة ٦٩٧ هـ[١]، وتقي الدين بن دقيق العيد محمد بن علي ابن وهب القشيري، تفقه على والـده بقوص وتوفي سنـة ٧٠٢ هـ[٢]، والحسين ابن أبي بكر بن عياض بن موسى السبتي القوصي توفي سنة ٦٨٢[٣] وغيرهم.

(١) ر: طبقات الشافعية ٨/ ٣٩٠ .
(٢) طبقات الشافعية ٩/ ٢٠٧ .
(٣) ر: معجم المؤلفين ٣/ ٣١٧ .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني

حيـــاة المؤلـــف

إن بعض الشخصيات التاريخية لا تحظى بما تستحقه من الاهتمام والدراسة من المؤرخين على الرغم من تميز تلك الشخصيات بمميزات وصفات عديدة تؤهلهم لذلك.

وإن المؤلف صالح بن الحسين الجعفري من أولئك الذين قَلَّ حظهم ونصيبهم عند المؤرخين. وقد بذلت ما في وسعي من الجهد والوقت سعياً وراء ترجمة وافية للمؤلف في بطون كتب المؤرخين والتاريخ، وبعد توفيق الله عز وجل وقفت على بعض المصادر التاريخية[1] التي ذكرت تاريخ ولادة المؤلف ووفاته وبعض المعلومات المهمة عنه، علما بأن من سبقني إلى دراسة المؤلف وآثاره وهو د. محمد محمد حسانين الذي قام بدراسة شاملة وتحقيق كتاب (الرد على النصارى - لصالح بن الحسين الجعفري) لم يذكر تاريخي ولادة ووفاة المؤلف، واكتفى في الترجمة بما في كتاب كشف الظنون لحاجي خليفة وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان.

(١) ذكرت ترجمة المؤلف في المصادر الآتية:
- ذيل مرآة الزمان ٢/ ٤٣٨ - لأبي الفتح اليونيني المتوفى سنة ٧٢٦ هـ.
- تاريخ الإسلام - للحافظ الذهبي المتوفى سنة ٧٤٥ هـ (مخطوطة بدار الكتب المصرية، ورقة ٧٤/ أ للسنوات ٦٦٣ - ٦٨٠ هـ.
- الوافي بالوفيات ١٦/ ٢٥٦ - صلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ.
- كشف الظنون ١/ ٣٧٩ - حاجي خليفة.
- هداية العارفين ٥/ ٤٢٢ - إسماعيل البغدادي.
- معجم المؤلفين ٥/ ٦ - عمر رضا كحالة.
- الأدب الجدلي والدفاعي في اللغة العربية بين المسلمين والنصارى واليهود ص ٣٦، ١٤١، ٤٠٩ - للمستشرق مورتز (باللغة الألمانية).
- تاريخ الأدب العربي ١/ ٥٥٣، والذيل ١/ ٧٦٦ - كارل بروكلمان (بالألمانية).

١- اسمه ونسبه:

هـو صالح بن الحسين بن طلحـة بن الحسين بن محمـد بن الحسين الهاشمي الجعفري الزينبي(١).

ومن المعلـوم أن لقب (الهاشمي) نسبـة إلى بني هاشم القـرشيين، وأمـا لقب (الجعفـري) فنسبة إلى جعفـر بن أبي طالب، الملقب بـالطيار وذي الجنـاحين، شهيـد مؤتـة رضي اللـه عنـه، وينتسب إليه جماعـة، منهم أبـو الحسن علي بن الحسن الجعفري السمـرقندي(٢)، ومحمد بن إسماعيل بن جعفـر بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر(٣)، والأمير الكبير الشريف فخر الدين أبو نصر إسماعيل بن حصن الـدولـة فخـر العـرب ثعلب بـن يعقـوب بن مسلم الجعفري الزينبي(٤)، ومحمد بن الحسن بن العربي بن محمـد الحجوي الجعفري الزينبي(٥).

---

(١) كذا أورده أبو الفتح اليونينـي في ذيل مرآة الزمان، وبمثله أورده الذهبي ما عـدا ذكر اسم الجد الرابع في النسب وهو (الحسين). وبمثل ذلك نقله الصفـدي عن الذهبي. أما الباقـون فقد ذكروه مختصراً كالآتي: صالح بن الحسين الجعفري.

(٢) ذكره ابن الأثير الجزري في اللباب في تهذيب الأنساب ١/ ٢٨٣.

(٣) ذكره الزبيدي في تاج العروس من جواهر القاموس ١٠/ ٤٤٦.

(٤) ذكره المقـريزي في الخطط ٣/ ٣٣٢ وقال عنه: كـان أمير الحاج والزائرين وأحد أمراء مصر في الـدولة الأيوبيـة، أوقف مدرسـة نسبت إليه بـاسم (المدرسة الشريفيـة) وتم بناؤهـا سنة اثنتي عشرة وستمائة وهي من مدارس الفقهاء الشافعية اهـ.

(٥) توفي سنـة ١٣٧٦ هـ (ر: الأعـلام ٦/ ٩٦ للزركلي، مقـدمة تحقيق كتـاب (الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي) للدكتور عبد العزيز القارئ)

وقد سكن الجعافرة بمصر في إسنا[1] بالصعيد الأعلى وهم قبائل كثيرة[2]، ولهم قرية تنسب إليهم[3]. وكانوا بادية أصحاب شوكة يحالفون الأمويين المقيمين هناك[4]. ويرى الأستاذ عبد الله خورشيد أن الجعافرة عاشوا في مصر منذ القرن الثالث على الأقل وأنهم هاجروا إلى أرض - الأشمونيين في هجرة قريش إلى تلك المنطقة[5].

وأما لقب (الزينبي) فنسبة إلى بطن من ولد علي الزينبي ابن عبد الله الجواد ابن جعفر الطيار ، نسبة إلى أمه زينب[6] بنت علي رضي الله عنه، وأمها فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

٢- كنيته ولقبه:

أجمعت المصادر التي ذكرت المؤلف على أن كنيته (أبو البقاء)[7]، ولكن لم تذكر تلك المصادر عدد أولاده أو أسماءهم.

وقد اشتهر المؤلف بلقبين هما:

الأول: (تقي الدين)، ذكره اليونيني والذهبي والصفدي.

---

(١) وهي الآن من المدن الكبيرة بمحافظة قنا المصرية. (ر: الموسوعة الميسرة ١/ ١٣٩٩).

(٢) ر: تاج العروس ١٠/ ٤٤٧ للزبيدي، لسان العرب ١٧/ ٢٣٥ لابن منظور، معجم البلدان ١/ ١٢١، ٣/ ٢٤٧، ٤/ ٢٣٥، لياقوت الحموي، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ١/ ١٩١ عمر رضا كحالة.

(٣) ر: لب اللباب في تحرير الأنساب ص ٦٥ للسيوطي.

(٤) ر: البيان والإعراب ص ٣٢ للمقريزي.

(٥) ر: القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة ص ٢٥ .

(٦) زينب بنت علي بن أبي طالب الهاشمية، سبطة رسول الله ﷺ، قال ابن الأثير: إنها ولدت في حياة النبي ﷺ، زوجها أبوها ابن أخيه عبد الله بن جعفر فولدت له أولاداً، وكانت مع أخيها لما قتل (ر: الإصابة ٨ / ١٠٠) وينسب إليها في مصر مسجدها، توفيت سنة ٦٥ هـ ودفنت بقناطر السباع بمصر (ر: أعلام النساء ٢/ ٩١، ٩٩ عمر كحالة)

(٧) وحرفت هذه الكنية إلى (أبي التقي) في كتاب الوافي بالوفيات للصفدي، ولعله خطأ مطبعي.

الثاني: (قاضي قوص) لتوليه القضاء بها مدة، ذكره الذهبي والصفدي.

٣- ولادته ونشأته:

ولد المؤلف في سنة إحدى وثمانين وخمسمائة من الهجرة النبوية الشريفة[١] بمصر، وكانت سنة ولادته في السنة الخامسة عشرة من ولاية السلطان صلاح الدين الأيوبي على مصر، وفيها أيضا توفيت زوجة السلطان صلاح الدين[٢].

وقد نشأ المؤلف في بيت سلالة النبوة والعلم والإمارة، فقد كان لآل جعفر الهاشميين منزلة رفيعة في الدولة الأيوبية حيث كان منهم الأمراء والقضاء.

٤- شيوخه وتلاميذه ومؤلفاته:

مما لا شك فيه أن المؤلف قد طلب العلم على عدد من أهل العلم حتى أصبحت له المكانة العلمية التي تؤهله لتولي القضاء في مدينة قوص التي تعتبر ثاني المدن المصرية أهمية في ذلك الوقت. ثم تولى ولايتها مدة من الزمن. غير أن المصادر التاريخية لم تذكر لنا شيوخه وتلاميذه سوى ما ذكره الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام فقال إن المؤلف سمع من علي بن البناء[٣] وغيره وحدث..... وحدث عنه الدمياطي[٤].

---

(١) ر: ذيل مرآة الزمان ٢/ ٤٣٨، تاريخ الإسلام ورقة ٧٤/ أ، وقد وقع خطأ مطبعي في كتاب الوافي بالوفيات للصفدي حيث ذكر أن المؤلف ولد سنة إحدى وثمانين.

(٢) ر: النجوم الزاهرة ٦/ ٩٨.

(٣) هو الشيخ الجليل المسند أبو الحسن على بن أبي الكرم نصر بن المبارك الواسطي الأصل البغدادي ثم المكي الخلال ابن البناء، قال عنه الذهبي:
راوي الجامع عن عبد الملك الكروخي، وما علمته روى شيئا غيره، حدث به بمكة والإسكندرية، ومصر ودمياط وقوص، وحدث عنه جماعة، مات بمكة في صفر وقيل في ربيع الأول سنة ٦٢٢ هـ.
(ر: سير الأعلام ٢٢/ ٢٤٧، النجوم الزاهرة ٦/ ٦٣، شذرات الذهب ٥/ ١٠١).

(٤) ترجم له الذهبي فقال: عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن بن شرف، والعلامة الحجة شرف الدين، أبو محمد الدمياطي، الشافعي، أحد الأئمة الأعلام، وبقية نقاد الحديث، ولد سنة ٦١٣ هـ واشتغل بدمياط وأتقن الفقه، ثم طلب الحديث ورحل وسمع من عدة أشياخ بدمشق وبحران

أما مـؤلفاتـه فقد اتفق أبـو الفتح اليونيني مع الحافظ الـذهبي على القول بأن للمؤلف تصـانيف عدة مفيـدة، لكنهما لم يذكرا أسماء مـؤلفاتـه، وقد وقفت - بفضل الله عز وجل وتوفيقه - على ثلاثة من مؤلفاته المعروفة هي :

١- تخجيل من حرف الإنجيل[١] .

٢- البيان الـواضح المشهود من فضائح النصـارى واليهود[٢] (كتاب العشر المسائل) .

٣- الرد على النصارى[٣] .

٥- عقيدته ومذهبه الفقهي:

قـد يتبادر إلى ذهن القـارئ لأول وهلـة حينما يقـرأ اسم المؤلف صـالح بن الحسين الجعفري[٤] أنه ينتمي إلى المذهب الجعفري الإمـامي الرافضي، المعروف بمـذهب (الشيعة الاثني عشريـة)، وهذا وهـمٌ باطلٌ ؛ فإن المؤلف صـالح بن الحسين الجعفـري مـن أهل السنـة على المعنى العـام الـذي يـدخل فيـه جميع المنتسبين إلى الإسلام عـدا الرافضة، وهذا اصطـلاح العامة، (لأن الـرافضة هم

= و الموصل والحرمين، ولـه تصانيـف متقنة في الحديث والعـوالي والفقـه، توفي سنـة ٧٠٥ هـ بالقاهرة. (ر: سير أعلام النبلاء ١/ ٥٠٢ النجوم الزاهرة ٨/ ٢١٨).

(١) وهو الكتاب الذي بين أيدينا، وسيأتي الحديث عنه.

(٢) ذكره رضا كحالة في معجم المؤلفين ٥/ ٦، وتوجـد نسخة منه بالمتحف البريطاني تحت رقم أ. د. د. ١٦٦٦١.

(٣) توجد نسخـة منه بمكتبة آياصوفيـا تحت رقم ٢٢٤٦ م بتركيا، وقام د. محمد محمـد حسانين بتحقيقه ونشره.

(٤) وهو الاسم الـذي ذكرته المصـادر المتأخرة ككشف الظنـون وهداية العـارفين ومعجم المؤلفين وتاريخ التراث العربي كما تقدم بيانه ر: ص ٣٤ .

المشهورون عند العامة بالمخالفة للسنة، فجمهور العامة لا تعرف ضد السني إلا الرافضي، فإذا قال أحدهم: أنا سني، فإنما معناه لست رافضيا)[1].

والأدلة على أن المؤلف من أهل السنة على هذا المعنى ما يأتي:

١- دعاؤه للصحابة - رضي الله عنهم - في مقدمة كتابه بعد البسملة والحَمْدلة [2]، ثم دعاؤه بأن يرضى الله عن الصحابة جميعا، وإقراره بأنهم أعيان الأمة، وإيراده لحديثين في فضل الصحابة[3].

٢- استدلاله بالأحاديث التي رواها الصحابة كأبي بكر وعمر وأبي هريرة وغيرهم رضي الله عنهم[4].

٣- إيراده لمناقب بعض الصحابة كأبي بكر وعمر وأنس وسعد بن أبي وقاص وغيرهم[5].

٤- ذكره لكرامات أبي بكر وعمر وعلي والعلاء بن الحضرمي والبراء بن مالك وعمران بن الحصين وأبي أمامة وابن عباس وغيرهم [6]، رضي الله عنهم أجمعين.

٥- إثباته لخلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم على الترتيب[7].

---

(١) ر: مجموع الفتاوي ٣/ ٣٥٦ لابن تيمية، منهاج السنة النبوية ٢/ ٢٢١ لابن تيمية.
(٢) ر: ص ٨٩ من الكتاب المحقق.
(٣) ر: ص ١٠٤، ١٠٥ من الكتاب المحقق.
(٤) ر: الباب العاشر القسم الثاني.
(٥) ر: ص ٧٨٦ وما بعدها من الكتاب المحقق.
(٦) ر: ص ٨٦٦ وما بعدها من الكتاب المحقق.
(٧) ر: ص ٨٢٦.

وقد تقدم بيان أن لقب (الجعفري) نسبه إلى جعفر الطيار رضي الله عنه[1].

أما على المعنى الأخص لأهل السنة - الذي يراد به أهل السنة المحضة الخالصة من البدع، ويخرج به سائر أهل الأهواء والبدع كالخوارج والجهمية والمرجئة والأشاعرة وغيرهم، ويبين ذلك قول الإمام ابن تيمية (فلفظ أهل السنة يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة، فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة، وقد يراد به أهل الحديث والسنة المحضة، فلا يدخل فيه إلا من يثبت الصفات لله تعالى، ويقول: إن القرآن غير مخلوق وإن الله يرى في الآخرة، ويثبت القدر، وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل الحديث والسنة)[2] - فعلى هذا المعنى فإن المؤلف - غفر الله لنا وله - متأثر بمنهج الأشاعرة فيما يبدو لي من خلال كتابه (التخجيل) في بعض المسائل المحدودة التي أشار إليها وهي كالآتي:

١- إثباته سبع صفات لله عز وجل، وهي التي يسميها الأشاعرة صفات المعاني[3]، ثم تأويله لصفات الاستواء، والنزول، والوجه، والعين، واليد، والقدم[4].

٢- نفيه أن يكون لشيء من أفعال الله تعالى علة مشتملة على حكمة تقتضي إيجاد الفعل أو عدمه[5]، وهذا الأصل تسميه بعض كتب الأشاعرة بـ(نفي الغرض عن الله) ويعتبرونه من لوازم التنزيه.

---

(١) وفي ذلك رد على الرافضة، فهذا رجل من آل علي وآل جعفر ومن بني هاشم يوالي أبا بكر وعمر وبقية الصحابة ويتبرأ ممن يعادونهم.

(٢) منهاج السنة النبوية ٢/ ٢٢١.

(٣) ر: ص ٣٥٧ من الكتاب المحقق.

(٤) ر: ص٩١، ٩٢، ٣٥٨، ٥٧٠.

(٥) ر: ص ٣٧٩ من الكتاب المحقق.

٣- قوله (إن النزول والصعود والحركة والسكون هي أدلة حدث العالم عند المحققين)[١]، وهذه طريقة الأشاعرة في الاستدلال على حدث العالم ثم الاستدلال على وجود الله، ويسمونه (دليل الحدوث والقدم).

ومع ذلك فإنه لا يجدر بنا أن نسند الرأي إلى الشخص لمجرد أنه ذكره في كتاب له، بل ينبغي أن نعرف أولا الظروف التي أحاطت بالمؤلف حين ألف الكتاب الذي نحن بصدده، هل ألفه لنفسه أو لغيره؟ وتحت أي تأثير عامل من العوامل ألفه[٢]؟

فمما هو ظاهر أن المؤلف - رحمه الله - قد ألف كتابه في الرد على اليهود والنصارى خاصة، فهو يورد أحيانا على الخصوم كثيرا من الاعتراضات والآراء التي لا يرتضيها هو كدليل عقلي يمكن الاستدلال به على ما يريده، ولكن يورده على أنه يجوز أن يعارض بها الخصم ولا يستطيع الخصم أن يدفع معارضته بها، ومقصوده من ذلك أن يبين للخصم أن الآراء الباطلة كافية أن يدحض بعضها بعضاً.

كما يبدو لي أن سبب تأثر المؤلف - عفا الله عنا وعنه - بمنهج الأشاعرة يرجع إلى نشأته وحياته في كنف الدولة الأيوبية التي كان ملوكها وقضاتها قد تلقوا العقيدة الأشعرية وحفظوها من أساتذتهم، فحملوا كافة الناس في أيام دولتهم على التزامه في مواجهة المذهب الفاطمي الشيعي، وكان هذا هو السبب في اشتهار مذهب الأشعري وانتشاره في أمصار الإسلام بحيث نسي غيره من المذاهب وجهل[٣].

---

(١) ر: ص ٦٠٨ من الكتاب المحقق، وقد قمت بالتعليق على تلك المواضع ببيان مذهب أهل السنة والجماعة فيها وإبطال بعض شبه المخالفين، ولله الحمد.

(٢) ر: مقدمة تحقيق د. سليمان دنيا لكتاب (تهافت الفلاسفة للغزالي)؛ ص ٥٦، بتصرف.

(٣) ر: خطط المقريزي ٣/ ٢٧٩، ٢٨٠، ٣٠٦.

وفي ختام الحديث عن عقيدة المؤلف - رحمه الله تعالى - نقول كما قال الإمام الذهبي في حق المفسر قتادة بن دعامة الذي كان يرى القدر، قال: (لعل الله يعذر أمثاله ممن تلبس ببدعة يريد بها تعظيم الباري وتنزيهه، وبذل وسعه، والله حكم عدل لطيف بعباده، ولا يسأل عما يفعل، ثم إن الكبير من أئمة العالم إذا كثر صوابه، وعُلم تحريه للحق، واتسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعرف صلاحه وورعه واتباعه، يغفر له زلله، ولا نضلله ونطرحه وننسى محاسنه، نعم. ولا نقتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك)[1].

أما مذهبه الفقهي فإنه كان شافعي المذهب فيما يبدو لي، حيث كان مؤسس الدولة الأيوبية صلاح الدين شافعياً، وعمل على القضاء على الدولة الفاطمية الشيعية، فصرف جميع القضاة الشيعيين وعين بدلهم قضاة من الشافعية السنيين، وفَوَّض القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي، فلم يستنب عنه في أقاليم مصر إلا من كان شافعي المذهب مثله، ومن ثم انتشر المذهب الشافعي في مصر وما تبعها من الأقاليم[2].

وبقي الأمر كذلك في مصر طوال عهد الأيوبيين وطرفا من عهد المماليك إلى أن ولي أمر مصر السلطان بيبرس الذي وَلَّى بمصر والقاهرة أربعة قضاة: شافعي ومالكي وحنفي وحنبلي واستمر ذلك من سنة خمس وستين وستمائة[3].

---

(١) ر: سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٧١.

(٢) ر: خطط المقريزي ٣/ ٢٧٩، الروضتين في أخبار الدولتين ١/ ١٩١ لأبي شامة، تاريخ الإسلام السياسي ٤/ ٣٧٨، ٣٧٩ د. حسن إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى ص ٣٤٩، د. علي إبراهيم حسن.

٣) ر: خطط المقريزي ٣/ ٢٨٠.

٦- شخصيته العلمية وثناء العلماء عليه:

لقد كان المؤلف - رحمه الله - شخصية علمية فذة متعددة الجوانب وذا ثقافة واسعة متنوعة، يدلنا على ذلك بعض آثاره العلمية التي وقفت عليها وما ذكره المؤرخون في ترجمته، وموجز القول في ذلك أنه كان مُتخصِصاً في العلوم الآتية:

١- علم الفقه وأصوله، يدل على ذلك توليه القضاء في مدينة قوص، فإن من شروط القاضي أن يكون من أهل الاجتهاد(١).

٢- علم الأديان وخاصة اليهودية والنصرانية، ويبدو لنا اهتمام المؤلف بهذا العلم وبروزه فيه واشتهار ذلك عنه بين العلماء فيما صَرَّح به المؤلف في مقدمة كتابه (تخجيل من حرف الإنجيل)(٢)، إضافة إلى بعض مؤلفاته التي عثرت عليها وهي (البيان الواضح المشهود في فضائح النصارى واليهود) و(الرد على النصارى) وقد تقدم الحديث عنها.

٣- علم المناظرة والجدل، وهو ظاهر في كتبه السابقة التي تبين أن المؤلف ذو نفس طويل في المناظرة والإقناع، فإذا أراد إثبات مسألة أو نفيها وبيان بطلانها فإنه يأتي بالأدلة النقلية والعقلية ويأخذ بمجامع القول والمسألة ويسد على خصمه الطريق ويواصل البحث والنقاش من جميع الوجوه والجوانب المحتملة حتى يلزم الخصم ويفحمه.

وقد ذكر لنا المؤلف في كتابه (التخجيل) بعض المناظرات والمجادلات التي جرت بينه وبين أحبار اليهود والنصارى في بيان بطلان ما يعتقدونه(٣)، وهذا

(١) ر: المغني ١٤/ ١٢، ١٤ لابن قدامة تحقيق د. عبد الله التركي ود. عبد الفتاح الحلو.
(٢) ر: ص ٩٢-١١٤ من الكتاب المحقق.
(٣) ر: ص ٢٥٠، ٤٢٤، ٤٢٨، وغيرها من المواضع في الكتاب المحقق.

دليل آخر على تمكنه في المناظرة ومقارعة الخصوم.

٤- علم الأدب، ويبين لنا اهتمام المؤلف بالأدب وبروزه فيه أيضا ما ذكره أبو الفتح اليونيني في ترجمته (بأنه كان أحد الفضلاء العارفين بالأدب وغيره. . . . وله خطب حسنة ونظم جيد).

وقال فيه الذهبي: (بأنه كان عارفا بالأدب وله خطب ونظم ونثر. . .)

ونقل ذلك عنه صلاح الدين الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات وأراد أن يضيف على ما نقله من الذهبي بعض الأبيات الشعرية للمؤلف إلا أن النسخة المخطوطة لكتاب الوافي بالوفيات فيها بياض بمقدار خمسة أسطر في المكان الذي ذكرت فيها تلك الأبيات الشعرية[١].

ومما يدل على سعة اطلاع المؤلف على الأدب والشعر استشهاده بالأبيات الشعرية في كتابه (التخجيل)[٢] وكثرة إيراده لها.

وقد عثرت على منظومة نثرية للمؤلف، تظهر الناحية الأدبية فيه، وهي صيغة يمين مغلظة كتبها المؤلف ليحلف بها اليهود والنصارى في الشيء الخطير ونصها كالآتي:

قال المؤلف عفا الله عنه: (يمين مغلظة يحلف بها النصارى في المال الخطير: يحضر النصراني إلى الكنيس في أول الصوم الكبير ويجتمع عليه مشائخ دينه فإن كان ذلك بحضرة الجاثليق[٣]، أو نائبه فهو أولى، ويقال له: قل: والله إله إبراهيم ماسك الكل، خالق ما يرى وما لا يرى، صانع كل شيء ومتقنه، الرب الذي لا أعبد سواه، ولا أعتقد إلا إياه ما تستحق علي شيئا مما تدعيه على

(١) ر: الوافي بالوفيات ١٦/ ٢٥٧.

(٢) ر: ص ٢٦٦، ٢٦٧، ٤٥٧، ٨٦٥ من الكتاب المحقق.

(٣) كبير قساوسة النصارى ورئيسهم.

مقتضى عقـدك وموجب شرعك وإلا فبرئت من الثالـوث وجحدت الأب وكذبت الابن وكفرت بروح القدس، وخلعت دين النصرانية والتزمت دين الحنيفية، وضمخت الهيكل[١] بحيضة يهودية، ورفضت مريم وقرنت مع الإسخريوطي[٢] في جهنم، وقلت إن المعمداني[٣] فيما شهد به ليسوع كذاب، وأن المسيح كآدم خلقه الله من تراب، وكفرت بإحياء العازر[٤] ومجيء الفارقليط[٥] الآخر، وتبرأت من التلاميذ الاثني عشر[٦]، وعلي جرم الثلاثمائة والثمانية عشر، وإن كانت ذمتي لك مشغولة ونيتي في حلفي هذا مدخولة، فكسرت الصلبان ودست برجلي القربان[٧]، وبصقت في وجوه الرهبان عند قولهم (كرياليصان)[٨]، واعتقدت أن مجمع نيقية كفر وفجر، وأن يوسف النجار زنى بأم يسوع وعهر، وإن كنت في إنكاري متأولا وفي دعوى براءة الذمة متقولاً، فعطلت الناقوس ورجعت إلى ملة اليهود والمجوس، وكسرت صليب الصلبوت، وطبخت به لحم الجمل وأكلته في أول الصوم الكبير تحت الهيكل بحضرة الآباء، ونقضت حجارة قمامة[٩]، وبنيت بها بيعة اليهود ومزقت عفارة أم الرب، وشاركت الشرط في سلب ثيابه، وأحدثت تحت صليبه، وتجمرت بخشبته، وصفعت الجاثليق، وهذه اليمين في عنقي وأعناق عقبي إلى الأبد).

---

(١) أي مكان القربان المقدس عند النصارى.

(٢) هو يهوذا الإسخريوطي الذي أخذ الرشوة من زعماء اليهود ليدلهم على المكان الذي اختبأ في المسيح، كما في الأناجيل المحرفة.

(٣) هو يوحنا المعمدان أي النبي يحيى عليه السلام.

(٤) اسم الشخص الذي أحياه المسيح من الموت كما ورد في الأناجيل.

(٥) وهو الذي بشرت الأناجيل بمجيئه.

(٦) هم حواريو المسيح عليه السلام.

(٧) أي القربان المقدس أو العشاء الرباني الذي تقدمه الكنيسة للنصارى يوم الأحد.

(٨) معناه: رب ارحم.

(٩) أي: كنيسة القيامة في فلسطين والتي يعتقد النصارى أن يوم القيامة ستكون فيها.

يمين مغلظة يحلف بها اليهود في الشيء الكثير: يحضر اليهودي إلى بيعتهم وهو صائم أو في يوم عيدهم ويجمع عليه جمع كبير من شيوخ دينهم وإن كان ذلك بحضرة المثيبة[1] أو نائبه فهو أولى، ويقال له: قل: والله الأزلي الذي لم يزل و لايزال الإله الذي برأ العالم وخلق حواء من آدم، وأرسل ماء الطوفان وتقبل من هابيل القربان، وكلم موسى من الشجرة ونصره على فرعون والسحرة، وغرق فرعون في بحر سوف ، وأهلك قورح ومن معه بالخسوف، ونَجَّى بني إسرائيل بيده القوية وأطعمهم منًّا وسلوى بالبرية، ما يُستحق على شيء من مطلبك على مقتضى مذهبك وإلا فرفضت موسى المكلم واتبعت عيسى بن مريم، وإن كان لك في ذمتي مثقال ذرة ونيتي في حلفي هذا غير برة، فعبدت الصلبان وعظمت الأوثان، وهدمت قبة الزمان[2]، وبنيت بها دير الرهبان، وكذبت التوراة وصدقت الإنجيل وفضلت يسوع الراوي على موسى وشمؤيل، وإن كنت قد جنحت لتأويل في هذه الأقاويل فقذفت مريم النبية[3]، وانسللت من اليهودية، والتزمت المجوسية وفارقت الملة الإسرائيلية بالكلية، وكفرت بالعشر الآيات[4]، وبقيت محروما إلى الممات، وحشرت في اليوم المعلوم بين عامورا وسدوم[5]، وهذه اليمين في عنقي وأعناق عقبي إلى الأبد . اهـ.

قال المؤلف: لا تستبعد منا نظم هذه الكلمات وإلزامهم بها فقد قال الفقهاء من أئمتنا - رضي الله عنهم - أن اليهود والنصارى والمجوس- أبعدهم الله -

(١) رأس المثيبة: أي مدير الأكاديمية الشرعية اليهودية ورئيس أحبارهم. (ر: الفكر الديني اليهودي ص١١٧ . حسن ظاظا).

(٢) وهي خيمة الاجتماع التي أمر الله بني إسرائيل ببنائها في القبة كما ورد في التوراة الحالية.

(٣) يعتقد اليهود أن مريم أخت موسى نبية من الأنبياء.

(٤) أي الوصايا العشر الواردة في التوراة.

(٥) مكان نزول العذاب على قوم لوط عليه السلام.

يغلظ عليهم اليمين بإحضارهم بيوت متعبداتهم عند الحلف، مع أنه لا حرمة لها، وكأن المطلوب من ذلك حمل الذمي على الخروج من الحق بتكليفه التلفظ بما يعظم موقعه في قلبه ليكن أدعى إلى حصول المقصود، كما يكلف المسلم حضور المسجد الجامع يوم الجمعة بعد صلاة العصر عند المنبر بحضرة جمع من المسلمين وزيادة ألفاظ معظمة كقوله: الطالب الغالب جل وعلا. اهـ[1].

وقد ظهر لي من خلال ما ذكره الحافظ الذهبي في ترجمه المؤلف بأنه سمع من المُحدِّث علي بن البنا، ثم تحديثه للعلامه الدمياطي، ومن خلال كثرة استشهاده واستدلاله بالأحاديث النبوية والآثار في كتابه التخجيل وكتبه الأخرى، أن المؤلف - رحمه الله - كان له اهتمام كبير وحرص شديد على طلب الحديث وسماعه وروايته.

تلك بعض الجوانب العلمية لشخصية المؤلف - رحمه الله - التي استطعت إثبات أدلتها، وقد تكون هناك جوانب أخرى نجهلها. فإن المؤلف بلا شك من الشخصيات العلمية المرموقة في عصره، ومن أصحاب المواهب والاهتمامات المختلفة والله أعلم.

أما ثناء العلماء عليه فقد كان المؤلف متخلقاً بأخلاق القاضي العدل والعالم الجاد الوقور، مما دعا المترجمين أن يثنوا عليه ثناءً حسناً، ويكفيه في ذلك شهادة إمامين وعالمين من ثقات المؤرخين، أولهما: الشيخ الإمام العالم بقية السلف[2]

---

(١) ورد نص اليمين المغلظة في نهاية الجزء الثاني من كتاب (التخجيل) بالمخطوطة، راجع الورقات ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، وفي آخرها كتب(تم الكتاب وحسبي الله وبه التوفيق برحمته وصلواته على خير خلقه سيدنا محمد وآله وسلم تسليما كثيرا والحمد لله). اهـ.

وإن أول ما استخدمت هذه الأيمان لليهود والنصارى في زمن الفضل بن الربيع وزير الرشيد أحدثها كاتب له، ذكر ذلك محمد بن عمر المدائني في كتاب (القلم والدواة) (ر: صبح الأعشى ١٣/ ٢٦٦ - ٢٨٧ للقلقشندي).

(٢) تلك الأوصاف ذكرها الإمام ابن كثير في ترجمة قطب الدين اليونيني (ر: البداية والنهاية ١٤/ ١٢٦).

قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد اليونيني الذي قال عنه: (صالح بن الحسين، أبو البقاء، تقي الدين، كان أحد الفضلاء العارفين بالأدب وغيره، والرؤساء المذكورين بالفضل والنبل، تولى قضاء قوص مدة، ونظرها أيضا مدة أخرى...).

وثانيهما: مؤرخ الإسلام وشيخ المحدثين والحفاظ الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عثمان الذهبي الذي ترجم له بقوله: (صالح بن الحسين، القاضي الجليل، الإمام تقي الدين، أبو البقاء الهاشمي كان رئيسا نبيلا عارفا بالأدب، ولي قضاء قوص مدة، وله خطب، ونظم، ونثر، وتصانيف. وأبخس نفسه بولاية نظر قوص وفاعل ذلك منقوص...).

٧- وفاته:

عاش المؤلف سبعة وثمانين عاما قضاها في القضاء والولاية والتأليف والدعوة إلى الله، فقد مر بنا أن ولادته كانت سنة (٥٨١ هـ)، وكانت وفاته سنة (٦٦٨ هـ)[١] بالقاهرة في مستهل ذي القعدة، ودفن من الغد بسفح المقطم[٢]. رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

---

(١) ذكره أبو الفتح اليونيني والذهبي والصفدي ورضا كحالة.

(٢) هضبة قرب القاهرة، تشرف على القرافة، وهي مقبرة فسطاط مصر والقاهرة، تقوم عليها قلعة صلاح الدين ومدينة المقطم (ر: المنجد في الأعلام ٦٧٩، الموسوعة الميسرة ٢/ ١٧٣١).